الصرح
فى مظاهر عناية الله برسوله ﷺ
من خلال سورتي (الضحى والشرح)

تأليف

د/ ماجدة خليفة قاسم

الأستاذ المساعد فى التفسير

بقسم القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

بكلية العلوم والآداب بالعلا

بالمملكة العربية السعودية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام النبيين ، وصفوة خلق الله أجمعين سيدنا محمد ﷺ.

وبعد:

فقد فضل الله بعض النبيين على بعض، وجعل أفضلهم وإمامهم وخاتمهم محمداً ﷺ، فأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعله رحمة وهداية للعالمين.

وقد رفع الله قدره، وأعلى شأنه، وفضله على الخلق أجمعين، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١).

ومن هنا كانت عناية الله برسوله ﷺ عناية فائقة تليق بقدره الكريم، وشرفه الرفيع، ومنزلته السامية، ورعاية الله به رعاية تسمو فوق كل رعاية، وتعلو فوق كل وصف أو تصور بشري. كيف لا ؟ وهو حبيبه، ومصطفاه، وشفيعه في خلقه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة في مواضع عديدة ناطقة بعناية الله بالرسول الأكرم، والنبي الأعظم.

وليس أحد عند الله كمحمد ﷺ شرفًا ومنزلة وفضلاً وجاهاً، فهو الذي يقول له في القرآن العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

وقال له - أيضاً- عليه الصلاة والسلام ولم يقل لغيره: ﴿وَاصْبِرْ

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٣.

(٢) سورة القلم الآية: ٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (١).

وللإنسان أن يتصور سعة هذه العناية، وجمال هذه الرعاية في قوله - جل جلاله - لسيد الخلق: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

فلم يخلق الله تعالى بشرًا، ولا ملكًا أكرم عليه من محمد ﷺ ذلك النبي الذي اصطفاه ليكون خاتم أنبيائه، وسيد خلقه، وشفيعهم يوم الدين.

أسباب اختيار الموضوع:

وقد اخترت جانباً من هذا الموضوع الكبير في هذا البحث بعنوان: الصرح فى مظاهر عناية الله برسوله ﷺ من خلال سورتي الضحى والشرح، لما يلى:

أولاً: أن هاتين السورتين الكريمتين لهما أثر كبير في بيان جوانب عديدة من مظاهر العناية الإلهية بسيد البشرية ﷺ ؛ حيث جعل الله تعالى سورة الضحى في مدح النبي ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ ثم ذكر في سورة الشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، ففى تلك السورتين من

---

(١) سورة الطور الآية: ٤٨.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مظاهر الرعاية والعناية الكثير والتى يفهم منها عظمة النبى ﷺ وكرامته عند رب العالمين.

ثانياً: أنه من العلم الواجب على المسلم، فينبغى عليه معرفته بربه وبنبيه وبدينه حتى يكون على بصيرة من أمره ، وفي بيان هذه المظاهر تعريف بشيء من العلم الواجب تعلمه حقا لله تعالى أو لنبيه ﷺ على المكلفين.

ثالثاً: أن هذا الموضوع يتعلق بشيء من الخصائص التكريمية والتشريفية للنبى الأكرم عند رب العالمين وهى مما يندب للمسلم معرفتها لأنها تعمق حبه في نفوس المؤمنين، فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه الجوانب الإيمانية التي تعرف الناس بمكانة خير الورى ﷺ ، وحتى تخرس الألسنة التي تتطاول على سمو مقامه الكريم وحري بها أن تقطع، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (١).

خطة البحث:

وتقتضى خطة البحث تقسيمه إلى: مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

المقدمة: وفيها نبذة عن الموضوع وخطة البحث.

الفصل الأول: مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ ونعمه عليه في سورة الضحى.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: السمات العامة لسورة الضحى.

المبحث الثاني: مظاهر عناية الله تعالى وتكريمه للنبي ﷺ في

---

(١) سورة الكهف الآية: ٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطلع السورة.

المبحث الثالث: النعم التي منَّ الله تعالى بها على النبي ﷺ في سورة الضحى.

المبحث الرابع: عناية الله تعالى برسوله ﷺ في ضوء الوصايا التي أوصاه بها في السورة الكريمة.

الفصل الثاني: مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: العلاقة بين سورتي الضحى والشرح.

المبحث الثاني: مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح.

الخاتمة: نتائج البحث وتوصياته وفهارسه.

والله الموفق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول
مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ ونعمه عليه في سورة الضحى

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: السمات العامة لسورة الضحى.

المبحث الثاني: مظاهر عناية الله تعالى وتكريمه للنبي ﷺ في مطلع السورة.

المبحث الثالث: النعم التي منَّ الله تعالى بها على النبي ﷺ في سورة الضحى.

المبحث الرابع: عناية الله تعالى برسوله ﷺ في ضوء الوصايا التي أوصاه بها في السورة الكريمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

السمات العامة لسورة الضحى

قبل بيان بعض مظاهر العناية الإلهية بالرسول الكريم ﷺ من خلال سورة الضحى ، ألقي الضوء على هذه السورة المباركة إجمالا، وأبين سمات هذه السورة المباركة، وهدفها النبيل وسبب نزولها.

ولعل تفسير صاحب الظلال - عليه رحمة الله - قد تناول هذا الغرض بأسلوب لطيف، فقال ما نصه: (هذه السورة بموضوعها، وتعبيرها، ومشاهدها، وظلالها، وإيقاعها، لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، ولطائف من ود، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين. إنها كلها خالصة للنبي ﷺ كلها نجاء له من ربه، وتسرية وترويح وتطمين،كلها أنسام من الرحمة، وأنداد من الود، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب، والقلب الموجوع) [(١)].

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [(٢)].

وفيما يلي بيان أهم سمات سورة الضحى:

١) **سورة الضحى سورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة آية، ونزلت بعد سورة الفجر ونزلت بعدها سورة ألم نشرح.**

٢) **سورة الضحى جميعها محكم، فليس فيها ناسخ ولا منسوخ** [(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، للشيخ / سيد قطب جـ٦/ صـ٣٩٢٥، ط ٩ / دار الشروق.

(٢) سورة الضحى الآيات: ١: ١١.

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية، بيروت صـ٦٦، الناسخ والمنسوخ، لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، تحقيق: زهير الشاويش ، محمد كنعان صـ١٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣) **سبب نزول السورة:** أخرج الإمام البخاري عن جندب بن سفيان قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فأتته امرأة فقالت: «يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك،لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله تعالى:﴿ وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (١)﴾ (٢).

٤) **جعل الله تعالى سورة الضحى في تفصيل أحوال النبي ﷺ،** فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾.

٥) **تكررت كلمة ربك في هذه السورة:** وهذا معناه أنه هو المعلم والمربي والمرشد والقيم وكل آيات السورة مرتبطة بكلمة الرب ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى....﴾ اليتيم يحتاج لمن يقوم بأمره ويرعاه ويعلمه ويوجهه ويصلح حاله وهذه من مهام الرب، واليتيم يحتاج هذه الصفات في الرب أولاً، ثم إن الضال يحتاج لمن يهديه والرب هو الهادي ، والعائل أيضًا يحتاج لمن يقوم على أمره ويصلحه ويرزقه فكلمة الرب تناسب كل هذه الأشياء وترتبط بها ارتباطًا أساسيًّا.

٦) **تكرار القسم في السورة المباركة:** ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، وفى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وفى تكرار القسم دلالة على تأكيد المقسم عليه في الموضعين.

---

(١) سورة الضحى الآيتان: ١، ٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ)، كتاب التفسير، باب ما ودعك ربك وما قلى جـ ٨ /صـ ٥٨٠، ح رقم ٤٩٥٠، قام بتصحيحه وتحقيقه:محب الدين الخطيب، كتب أبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه / قصي محب الدين الخطيب، ط / الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٦، القاهرة، دار الريان للتراث.

المبحث الثاني

مظاهر عناية الله تعالى وتكريمه للنبي ﷺ في مطلع السورة

في هذه السورة يبين الله تعالى عنايته برسوله ﷺ في لمسة من حنان ورحمة من ود، وتتبين لنا تلك العناية من خلال عدة أمور:

الأمر الأول: القسم ببعض آلائه على مداومة صلته بالنبي ﷺ.

فقد أقسم الله تعالى بالضحى والليل أنه ما ودع رسوله وما قلاه - أى وما أبغضه - فقال تعالى مقسمًا:﴿وَالضُّحَى﴾ وهو في اللغة: النهار كله، والضحى مقصورة مؤنثة، وذلك حين تشرق الشمس، أما الضحوة فهو ارتفاع أول النهار، والضحى بالضم والقصر، وبه سميت صلاة الضحى(١).

ولقد جمع المفسرون بين المعنى اللغوي والمراد في أقوالهم.

فيقول الإمام البغوي: «أقسم بالضحى وأراد به النهار كله، بدليل أنه قابله بالليل إذا سجى، نظيره قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) أي نهارًا.

وقال قتادة ومقاتل: «يعني وقت الضحى، وهي الساعة التي يقع فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحر والبرد ، والصيف والشتاء »(٣).

لماذا خص الله تعالى وقت الضحى بالقسم ؟

خص الله تعالى وقت الضحى بالقسم به ؛ لأمور منها ما يلي:

١) أنها الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى - عليه السلام - وألقى السحرة سجدا (٤) فكأن هذا الوقت اكتسب صفة الفضيلة.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور جـ١٤ /صـ٤٧٥، ط / دار صادر بيروت.
(٢) سورة الأعراف الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٣) تفسير البغوى جـ٤ /صـ٤٩٨.
(٤) تفسير أبي السعود جـ٩ / صـ١٦٩.

٢) أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش في زمان الليل، ففيه بشارة للنبي ﷺ أن بعد استيحاشه بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي [١].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [٢] وسجى في اللغة: من سكن ودام [٣] فهي بمعنى سكن، أو اشتد ظلامه أو غطى مثل تسجية الميت.

وقال الفراء: «إذا أظلم وركد في طوله كما يقال بحر ساج وليل ساج إذا ركد وسكن وأظلم »[٤].

ويقول أبو السعود: «﴿إِذَا سَجَى﴾ أي: سكن أهله؛ أو ركد ظلامه»[٥].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ جواب القسم، وودع من التوديع، وهو في الأصل من الدعة ؛ وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله عنه كآبة السفر، وأن يبلغه الدعة، وخفض العيش، ثم صار متعارفًا في تشييع المسافر وتركه، ثم استعمل في الترك مطلقًا، وفسر به هنا أي: ما تركك ربك [٦].

والتوديع مبالغة في الودع؛ لأن من ودَّعك مفارقًا فقد بالغ في تركك[٧].

وحقيقة التوديع المتعارف غير مقصودة ها هنا.

ولم يقل المشركون ودعه ربه على هذا المعنى ؛ لأنهم لا يعتقدون بمكانة

---

(١) تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي جـ١٧/ صـ ٧٠.

(٢) سورة الضحى الآية: ٢.

(٣) لسان العرب جـ١٤ /صـ٣٧١.

(٤) معاني القرآن، للفراء جـ٣ /صـ٢٧٣.

(٥) تفسير أبي السعود جـ٩ / صـ١٦٩.

(٦) تفسير روح المعاني للألوسي جـ١٥/صـ٣٧٤.

(٧) تفسير الكشاف للزمخشري جـ٤ / صـ٢٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النبي ﷺ من ربه سبحانه.

وقد أجاب الإمام الألوسي فقال: «وعندي أن الظاهر أن ذلك القول بأي معنى كان صادر على سبيل التهكم إذا كان المراد بالرب هو الله تعالى، وكان القائل من المشركين كما لا يخفى على المتأمل »(١).

﴿رَبُّكَ﴾: هو الله سبحانه وتعالى، وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية، وإضافته إلى ضميره ﷺ من اللطف ما لا يخفى فكأنه قيل: «ما تركك المتكفل بمصلحتك ، والمبلغ لك على سبيل التدريج كمالك اللائق بك »(٢).

﴿وما قلى﴾ وهو في اللغة: البغض.

يقول ابن سيده:«قَلَيْتُه: أي أبغضته، وكرهته غاية الكراهة فتركته»(٣).

ويقول الراغب: «القلي شدة البغض »(٤).

وقد وافق المعنى اللغوي أقوال المفسرين.

يقول الإمام الألوسي: «أي ما أبغضه »(٥).

وحذف المفعول، إما للاستغناء عنه بذكره من قبل، أو للقصد إلى نفي صدور الفعل عنه تعالى بالكلية، مع أن فيه مراعاة للفواصل (٦).

بيان عناية الله تعالى وتكريمه للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾:

يتبين لنا مدى عناية الله تعالى بالنبي ﷺ ورعايته له وتكريمه له في هذه الآية من خلال عدة نقاط أوجزها فيما يلي:

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي جـ١٥ / صـ٣٧٥.

(٢) مرجع سابق جـ ١٥/صـ٣٧٥.

(٣) لسان العرب، لابن منظور جـ١٥ /صـ١٩٨.

(٤) المفردات للراغب صـ٤١٢.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي جـ١٥/صـ٣٧٥.

(٦) تفسير أبي السعود جـ٩ / صـ١٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١) **حذف مفعول الفعل قلى:** ففي هذه الآية الكريمة ذكر مفعول الفعل ودع وهو (الكاف في ودعك)، وحذف مفعول الفعل قلى (ولم يقل قلاك) وهذا الذكر من باب التكريم والحذف من باب التكريم أيضًا. فلم يقل الله تعالى قلاك لرسوله الكريم حتى لا ينسب الجفاء للرسول ﷺ فلا يقال للذي نحب ونجل: ما أهنتك ولا شتمتك، إنما من باب أدب المخاطبة يقال: ما أهنت وما شتمت فيحذف المفعول به إكرامًا للشخص المخاطب وتقديرًا لمنزلته ، وترفع عن ذكر ما يشينه ولو كان بالنفي.

أما التوديع فالذكر فيه تكريم للمخاطب فيحسن ذكر المفعول مع أفعال التكريم وحذفه مع أفعال السوء ولو بالنفي، وهكذا يوجه الله تعالى المسلمين لأدب الكلام ، ويعلمنا كيف نخاطب الذين نجلهم ونحترمهم، ولقد جمعت هذه الآية التكريم للرسول ﷺ من ربه مرتين، مرة بذكر المفعول مع فعل التوديع ومرة بحذف المفعول مع الفعل قلى.

٢) **قوله تعالى "ربك" ولم يقل "الله":** فهنا تكريم آخر من الله تعالى لرسوله الكريم ، فالرب هو المربي والموجه والقيم ، وذكر الفاعل وهو الرب إكرام آخر ، فلم يقل لم تودع ولم تُقْلَ، والرب هو القيم على الأمر فكيف يودعك وهو ربك لا يمكن أن يودع الرب عبده ، كما لا يمكن لرب البيت أن يودعه ويتركه، ورب الشيء لا يودعه ولا يتركه، وإنما يرعاه ويحرص عليه.

واختيار كلمة الرب بدل كلمة الله؛ لأن لفظ الجلالة (الله) كلمة عامة للناس جميعًا ولكن كلمة الرب لها خصوصية، وهذا يحمل التطمين للرسول الكريم من ربه الذي يرعاه ولا يمكن أن يودعه أو يتركه أبدًا [١].

---

(١) لمسات بيانية – لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور / فاضل صالح السامرائي – أستاذ النحو في جامعة الشارقة صـ ٢٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمر الثاني: البشارات التي أعدها الله تعالى له. وتشمل:

أ) تبشير النبي ﷺ بما أعده الله تعالى له في الآخرة.

بعدما سبق من نفي الله تعالى للتوديع والقلي من ترك وبغض ، بيّن سبحانه وتعالى أنه لازال يبشر النبي ﷺ بما أعده له في الآخرة؛ بأنه أجلّ وأعظم فقال تعالى:﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (١).

أي: ولدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها؛ خير من الدنيا وما فيها (٢).

وهذه الآية تدل على مواصلة عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيرًا له من الأولى، فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه(٣).

كيف اتصل قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله ؟:

يقول الإمام الزمخشري: «لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله مواصلك بالوحي إليك؛ وأنك حبيب؛ ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، ولا نعمة أجل منه، أخبره: أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية»(٤).

واللام: جواب قسم محذوف: أي الجنة خير لك من الدنيا مع أنه ﷺ قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة في الدنيا، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار، منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئًا ؛ ولما كانت طريقًا إلى الآخرة ، وسبباً لنيل ما أعده الله سبحانه لعباده الصالحين بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة

---

(١) سورة الضحى الآية: ٤.

(٢) تفسير الطبري جـ١٢ /صـ٦٢٤.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٩ / ٢٠٤.

(٤) تفسير الكشاف جـ٤ / صـ٢٦٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان فيها ﴿خَيْرٌ﴾ في الجملة من هذه الحيثية [١].

وقال أبو حيان: «واللام ابتدائية أكدت مضمون الجملة »[٢].

والمتبادر ما قرروه أن الجملة مستأنفة واللام فيها ابتدائية [٣]. وجوز أن يقال فيه إنه لما نزل ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ حصل له - عليه الصلاة والسلام - به تشريف عظيم فكأنه ﷺ استعظم ذلك فقيل له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾. على معنى أن هذا التشريف ؛ وإن كان عظيمًا إلا أن ما لك عند الله تعالى في الآخرة خير وأعظم.

وجوز أيضًا أن يكون المعنى؛ أن انقطاع الوحي لا يجوز أن يكون لما يتوهمون ؛ لأنه عزل عن النبوة وهو مستحيل في الحكمة بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك؛ لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة، وذلك أمارة الموت فكأنه تعالى قال: «انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت، لكن الموت خير لك فإن مالك عند الله تعالى في الآخرة أفضل مما لك في الدنيا »[٤].

ب) تبشير النبي ﷺ بأنه تعالى سوف يعطيه من خيري الدنيا والآخرة حتى يرضيه.

قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [٥].

وهذا من مزيد حب الله عز وجل لرسوله ﷺ، إذ يريد أن يكون قلبه منصرفًا إليه وحده غير مشغول بشأن أحد من خلقه [٦]. فيبشره الله تعالى

---

(١) فتح القدير للشوكاني جـ٥ /صـ٥٧٩٢.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان جـ١٠ /صـ٤٩٧.

(٣) تفسير الألوسي جـ١٥ /صـ٣٧٨.

(٤) مرجع سابق جـ١٥ /صـ٣٧٨.

(٥) سورة الضحى الآية: ٥.

(٦) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية - محمود توفيق محمد سعد - أستاذ البلاغة

بأنه سوف يعطيه من خيري الدنيا والآخرة، كل ما يسعده ويرضيه، من نصر عظيم، وفتح مبين، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يده، وعلى أيدي أصحابه الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله -تعالى- كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة... وبذلك يرضى النبي ﷺ رضاء تامًا بما أعطاه ربه سبحانه من نعم ومنن.

يقول الفراء: «سوف كثرت في الكلام، وعرف موضعها، فترك منها الفاء والواو، والحرف إذا كثر فربما فعل به ذلك، وهي في قراءة عبد الله (وليعطيك ربك فترضى) والمعنى واحد »(١). وهذه قراءة شاذة تفسيرية للقراءة المتواترة.

واللام في " لسوف " على إضمار مبتدأ أي ولأنت سوف يعطيك (٢).

وقد فصل الإمام الزمخشري قائلا: «هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره -ولأنت- سوف يعطيك. وجمع بين حرفي التوكيد والتأخير، معناه أن العطاء كائن لا محالة إن تأخر لما في التأخير من المصلحة »(٣).

وقد قيد الإمام الطبري هذه الآية بالآخرة، فقال الإمام: «ولسوف يعطيك يا محمد ربك في الآخرة من فواضل نعمه حتى ترضى »(٤).

ووافقه الإمام الألوسي بقوله: «وفيه أن دخول اللام عليها مع دخوله

والنقد ورئيس القسم- في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر شبين الكوم - الطبعة الأولى١٤٢٢هـ- مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ عابدين.

(١) معاني القرآن للفراء جـ٣/صـ٢٧٤.

(٢) تفسير أبي حيان جـ١٠/صـ٤٩٧.

(٣) تفسير الكشاف جـ٤/ صـ٢٦٤، باختصار يسير.

(٤) تفسير الطبري جـ١٢/ صـ٦٢٤.

على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعد الحالية »[١].

والله سبحانه وتعالى يعطي نبيه كل ما يريده، وذلك مما لا تتسع له الدنيا فثبت أن الآخرة خير له من الأولى [٢].

و الذي تميل إليه النفس أن المراد بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ في الدنيا فقد قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ ولم يقل وسيعطيك ربك؛ مما يدل على أنه ما قرب أجله بل يعيش بعد ذلك زمانًا، وأن هذا الوعد إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى في الدنيا، وأيضا إشارة وتنويه إلى ما أدخر له ﷺ في الآخرة.

وفي هذا المعنى يقول الإمام الزمخشري: «هو موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وما فتح الله على خلفائه في أقطار الأرض، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله »[٣].

فما أوتي في الدنيا فمعروف، أما ما يؤتيه في الآخرة فهناك ما يمكن حمله على المنافع، وما يمكن حمله على التعظيم.

أما المنافع: فقال ابن عباس: «له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها ».

وأما ما يمكن حمله على التعظيم: فالمروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس أن هذا هو الشفاعة في الأمة [٤] والحمل هنا على الشفاعة متعين.

---

(١) تفسير الألوسي جـ١٥ / صـ٣٧٩.
(٢) تفسير الرازي جـ٣١ / صـ ٢١٢، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٣) تفسير الكشاف جـ٤ /صـ٢٦٤ باختصار يسير.
(٤) تفسير الرازي جـ٣٠ / صـ٢١٢ باختصار يسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأولى: أن هذا وعد شامل لما أعطاه في الدنيا ولما أدخر له من الثواب في الآخرة، وكل ما ذكر من أقوال يدخل تحت هذا العطاء سواء في الدنيا والآخرة.

بيان مدى عناية الله تعالى بنبيه ﷺ من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾:

هذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين [1]، ويتبين لنا مدى عناية الله تعالى برسوله في تلك الآية من خلال عدة نقاط أوجزها فيما يلي:

١) أن الله تعالى أطلق العطاء ولم يحدده بشيء معين ، وإنما شمل هذا العطاء كل شيء إكرامًا للرسول الكريم ﷺ وتوسيعًا للعطاء.

٢) إطلاق فعل الرضى، فقد جعل الله تعالى الرضى عامًا، وذكر المعطي أيضًا وهو الرب، وعلينا أن نتخيل كيف يكون عطاء الرب؟ والعطاء على قدر المعطي وهذا كله فيه تكريم للرسول ﷺ.

٣) إضافة ضمير الخطاب " الكاف" في ﴿رَبُّكَ﴾ فيه تكريم آخر للرسول ﷺ.

٤- اختيار كلمة ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ فهذه الكلمة بالذات في غاية الأهمية ؛ فالرضى هو من أجل النعم على الإنسان وهو أساس الاستقرار والطمأنينة وراحة البال ، فإن فقد الرضى حلت الهموم والشقاء ودواعي النكد على الإنسان.

****

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء- للعلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ، ط / دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع - الحاشية للعلامة / أحمد بن محمد بن محمد الشمنى ٨٧٣- جـ١ / صـ٣٦.

المبحث الثالث
النعم التي منَّ الله تعالى بها على النبي ﷺ في سورة الضحى

يذكِّر الله تعالى نبيه ﷺ بنعمه عليه ، و ما كان من شأنه معه منذ أول الطريق في أسلوب يتصف بالود والرحمة على نبيه ﷺ محوطةً بالرعاية الإلهية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ فهذه ثلاث منن لله تعالى على رسوله منَّها عليه، وذكّره بها، امتنان التكريم والتعظيم وليس امتنان التحقير والإزراء (١).

والحكمة من ذكر تلك النعم ترجع إلى عدة أسباب منها:

١) أن النبى ﷺ يوقن أن الله معه وله وأنه ما تركه ولن يتركه.

٢) وحتى تنتهي فرحة المشركين ببطء الوحي وتأخّره بضعة أيام (٢).

٣) بين الله سبحانه وتعالى نعمه عليه السابقة حتى يستدل بها على النعم اللاحقة.

ولاشك أن النعم التي أنعم الله بها على نبيه ﷺ هي من أعظم أنواع العناية الإلهية بالرسول ﷺ منذ نشأته، وفيما يلي بيان تلك النعم:

النعمة الأولى: إيواؤه تعالى في حال يتمه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ (٣).

صلة الآيات بما قبلها: تعديدٌ لما أفاض ﷺ من أول مرة إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - العدد (٥٨) - بعنوان: رسائل لم تحملها البريد - للشيخ / عبد الرؤوف اللبدي- بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية، صـ٢٥٧.

(٢) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري جـ٤ / صـ ٤٠٩.

(٣) سورة الضحى الآية: ٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا وانشراحًا وحبورًا (١).

تفسير الآية:

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفي على أكمل وجه، كأنه قيل قد وجدك (٢). أى: للاستفهام التقريرى.

﴿يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ من الو جود الذي بمعنى العلم.

والمعنى: ألم تكن يتيما فآوى وهو على معنيين: إما من آواه، وإما من أوى له إذا رحمه (٣).

اليتيم ورعاية الجد ثم العم:

ولد النبي ﷺ بمكة يتيم الأب وكان ذلك وهو في بطن أمه وهوا لمشهور (٤).

فقد توفى والده ﷺ بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار عندما أرسله والده عبد المطلب إليها ليشتري منها تمرا (٥).

وعندما بلغ من العمر ست سنوات توفيت والدته آمنة بنت وهب بالأبواء(٦) وهي راجعة به من المدينة إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني

---

(١) تفسير الألوسي جـ١٥/ صـ٣٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير الكشاف جـ١٥ / صـ٢٦٤باختصار.

(٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مجلد قسم السيرة للذهبي صـ٥٠، تحقيق د /عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط /١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د /مهدي رزق الله أحمد، صـ١١٠، ط ٤ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

(٦) وهي قرية بينها وبين الجحفة ما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. معجم البلدان، ياقوت عبد الله الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦هـ، جـ١/صـ٧٩، ط / دار صادر، بيروت (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م).

عدي بن النجار [١].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة ، فأخذ بحوطه بعنايته ورعايته إلى أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنوات [٢] فأوصى به إلى عمه أبي طالب ، وكان يقربه ويدنيه منه، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بثلاث سنين.

حكمة يتم النبي ﷺ:

١) أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب؛ بأن محمداً إنما استقى دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده.

٢) أن يتولاه الله تعالى برعايته وحفظه.

٣) أن في يتمه أسوة للأيتام في التعامل معهم، والحنو عليهم، وأن لا يكون اليتم عقبة في وجه اليتيم فيتكل عليها عن بلوغ أسمى المراتب.

٤- لئلا يكون لمخلوق عليه حق.

والمعنى: يقول الله تعالى: حين كنت صبيا ضعيفًا ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت، أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك ؟ [٣].

النعمة الثانية: هدايته إلى الإسلام والرسالة.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ [٤].

عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق، أو على المضارع المنفي بلم داخل في حكمه [٥].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١/صـ١٣٧ بتصرف.

(٢) الأزرقي في تاريخ مكة جـ١ / صـ ٣١٤، ٣١٥.

(٣) تفسير الرازي جـ١٥/ صـ٢١٣، ٢١٤ باختصار.

(٤) سورة الضحى الآية: ٧.

(٥) تفسير الألوسي جـ١٥/ صـ٣٨١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿ضَالاً﴾ معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع كقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (١).

وقيل:«ضل في صباه في بعض شعاب مكة، فرده أبو جهل إلى عبد المطلب ».

وقيل: «أضلته حليمة عند باب الكعبة حين فطمته، وجاءت به لترده إلى عبد المطلب ».

وقيل: «ضل في طريقه إلى الشام حين خرج مع أبي طالب ».

(فهداك): فعرفك القرآن والشرائع أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك(٢).

وقال الإمام الطبري رواية عن السدي:«كان على أمر قومه أربعين سنه»(٣).

فإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله؛ فالأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع »(٤).

ولبعض المفسرين أقوال فيها ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فما بالنا بأفضل الخلق ﷺ (٥).

والمعنى الذي أميل إليه هو: أنه ﷺ كان على غير علم بمعرفة الرسالة، وخاصة أنه أمي، فهداه الله تعالى إلى رسالة الإسلام بما فيها من شرائع عظيمة، هدى بها خلقًا عظيمًا من المسلمين.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ / صـ٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) تفسير الطبري جـ١٢ / صـ٦٢٤.

(٤) تفسير الكشاف جـ٤ / صـ٢٦٥.

(٥) مثل: تفسير البغوى جـ٤ / صـ٤٩٩، تفسير القرطبي جـ٢٠ / صـ٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا من أعظم أنواع التكريم، فكل الناس ضال إلا من هداه الله، فما بالك بمن أخذه الله تعالى من الضلال فهداه ليكون أعظم هاد للناس جميعًا.

النعمة الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (١).

أي فقيراً، وقرئ (عيلاً)، وقرئ (عديما) ﴿فَأَغْنَى﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بمال حصل لك من ربح التجارة، أو بمال أفاء عليك من الغنائم، وقيل قنعك وأغنى قلبك (٢) والمعاني كلها واردة. والقراءتان السابقتان شاذتان مفسِّرتان للقراءة المتواترة.

والذي تميل إليه النفس: أن المراد بالغنى هو: القناعة، والرضى، لقول مقاتل: «فرضاك بما أعطاك من الرزق »(٣) واختاره أيضًا فقال:«ولم يك غنى عن كثرة مال؛ ولكن الله رضاه بما أتاه »(٤).

وقال الجزائري: «فأغناه الله بغنى القناعة فلم يمد يده لأحد قط »(٥).

وهذه هي حقيقة الغنى التي أخبر عنها المصطفى ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه:«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»(٦).

وقد تواترت الأخبار بأن النبي ﷺ كان يعيش على الكفاف:

---

(١) سورة الضحى الآية: ٨.

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٩ /صـ١٧١.

(٣) تفسير البغوى جـ ٤ / صـ٤٩٩.

(٤) معاني القران للفراء جـ٣ /صـ٢٧٤.

(٥) أيسر التفاسير للجزائري جـ٤ /صـ ٤١٠.

(٦) أخرجه البخاري الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفى سنة (٢٥٦هـ) جـ٤ / صـ٢٠٢٥، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦، مراجعة وضبط وفهرسه الشيخ / محمد علي القطب، والشيخ هشام البخاري، ط ٢ / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، المكتبة العصيرية، بيروت.

في المأكل:

فقد أخبرت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنهم كانوا يعيشون على الأسودين - أى التمر والماء - ولا يوقد في بيوتهم نارٌ حتى ثلاثة أهلة.

فعن عروة بن الزبير عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت لعروة: «يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: «ما كان يعيشكم؟ ». قالت: «الأسودان التمر والماء »[1].

وفي الملبس:

كان ﷺ يلبس ما تيسر له، ولا يطلب شيئًا مفقودًا؛ فلبس القطن والكتان والصوف، وكان تهدى إليه بعض الملابس فلا يردها، وأثر عنه ﷺ أنه كان يعطي بعض ملابسه لبعض أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ وهذا من لطف عشرته وحسن خلقه.

وعامة فقد توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير[2].

وحذف المفعول في الأفعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل.

****

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه جـ٤ / صـ٢٠٢٨، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

(٢) فتح الباري جـ١٦/ صـ٢٨٦، ح رقم ٤٤٦٧.

المبحث الرابع

عناية الله تعالى برسوله ﷺ من خلال الوصايا التي أوصاه بها في سورة الضحى

بعد أن ذكّر الله تعالى نبيه ﷺ بثلاث منن إلهية، والمنة تتطلب شكرًا، والله يزيد على الشكر، ومن هنا أرشد الله تعالى رسوله إلى شكر تلك النعم؛ ليزيده عليها فأتبعهن بوصايا ثلاث،كل واحدة من تلك الوصايا هي شكر النعمة التي قوبلت بها.

فالنعمة الأولى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ شكرها يكون بـ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾.

والثانية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى﴾ فقابلها بقوله:﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ وهذا لأن السائل ضال يبغي الهدى.

والثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾، فقابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١).

فبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه ﷺ من اليتم، وهدايته من الحيرة، وإغنائه من العيلة، يوجه المسلمين من خلاله ﷺ بأن يراعوا من هم في مثل حاله؛ لأن ذلك هو غالب حال المسلمين، وذلك من خلال توجيهات إلهية عظيمة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢).

صلة الآيات بما قبلها:

لما عدد الله تعالى عليه هذه النعم الثلاث، وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها(٣).

وفيها أربعة مسائل:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب جـ١/ صـ ١١٣.

(٢) سورة الضحى الآيات: ٩، ١٠، ١١.

(٣) تفسير أبي حيان جـ ١٠ /صـ ٤٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

أي: لا تسلط عليه بالظلم؛ ادفع إليه حقه، واذكر يتمك- قاله الأخفش.

وعن مجاهد: «فلا تحتقر».

وقرئ: (تكهر) بالكاف في مصحف ابن مسعود، فعلى هذا يحتمل أن يكون عن قهره، بظلمه وأخذ ماله، وهذه القراءة عن ابن مسعود شاذة تفسيرية.

وخص اليتيم؛ لأنه لا ناصر له غير الله تعالى، فغلظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه.

الثانية: دلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين». وأشار مالك بالسبابة والوسطى (١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: لا تزجره ؛ فهو نهي عن إغلاظ القول ؛ ولكن رده ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك - قاله قتادة وغيره -.

وقيل السائل هنا: الذي يسأل عن الدين؛ أي: فلا تنهره بالغلظة، والجفوة، وأجِبْهُ برفق ولين.

قال ابن العربي: «وأما السائل عن الدين ؛ فجوابه فرض على العالم على الكفاية؛كإعطاء سائل البر سواء».

واليتيم والسائل منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

أي: انشر ما أنعم الله به عليك بالشكر، والثناء، والتحدث بنعم الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي، المتوفى (٦٧٦ هـ) المسمى: المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج /جـ١٨، كتاب الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، صـ٣١٣، ح رقم ٧٣٩٤، حقق أصوله وخرج أحاديثه ورقمه حسب المعجم المفهرس الشيخ / خليل مأمون شيحا، ط٣ /١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالى، والاعتراف بالشكر.

وعن مجاهد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال: «بالقرآن »، وعنه قال:«بالنبوة ». أي: بَلِّغ ما أرسلت به والخطاب للنبي، والحكم دام له ولغيره [١].

وقال آخرون: «﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ هي عموم في جميع النعم[٢].

والظاهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة، أمره بثلاثة؛ فذكر اليتيم أولا وهي البداية، ثم ذكر السائل ثانيًا وهو العائل، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية، فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة، وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف وهو ــ عليه الصلاة والسلام ــ معصوم من اقتراف ما لا يرضى الله - عز وجل - في القول، والفعل، والعقيدة، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف، وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب [٣].

الحكمة في أن الله تعالى أخر حق نفسه عن حق اليتيم والعائل:

فيه وجوه:

أحدها:كأنه يقول أنا غني، وهما محتاجان، وتقديم حق المحتاج أولى.

وثانيها: أنه وضع في حظهما الفعل، ورضي لنفسه بالقول.

وثالثها: أن المقصود من جميع الطاعات؛ استغراق القلب في ذكر الله تعالى، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى؛ حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله، ولذلك عبر بلفظ (حدث) على قوله فخبر ليكون ذلك حديثًا عنده لا ينساه ويعيده مره بعد أخرى [٤].

****

---

(١) تفسير القرطبي جـ٢٠/ صـ ٦٧، ٦٨، ٦٩ باختصار

(٢) تفسير أبي حيان جـ١٠ /صـ٤٩٨.

(٣) نفس المرجع.

(٤) تفسير الرازي جـ٣٠ / صـ٢٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاقة بين سورتي الضحى والشرح.

المبحث الثاني: مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول
العلاقة بين سورتي الضحى والشرح

أولاً: في النزول.

نزلت سورة الشرح بعد سورة الضحى، وكأنها تكملة لها.

ثانيًا: في التناسب.

تتناسب جمل: ألم نشرح، والضحى، ففي الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى.....﴾ إلى آخره، وفي الشرح قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) حتى قال المفسرون أن آيات سورة الشرح معطوفة على آيات سورة الضحى، كما قال السمرقندي في تفسير سورة الشرح: «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ (٢)، وذلك أن النبي ﷺ، قال: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً، وَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا قَطُّ، فَقُلْتُ: اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً. فَقَالَ الله تعالى:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ قُلْتُ: بَلَى قال:﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٣) قُلْتُ: بَلَى قال:﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (٤)، قُلْتُ: بَلَى. قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآية »(٥).

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي صـ٢١.

(٢) سورة الضحى الآية: ٦.

(٣) سورة الضحى الآية: ٧.

(٤) سورة الضحى الآية: ٨.

(٥) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم جـ٤ / صـ ٤١٧، والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير جـ ١٠ /صـ ١٤٦، رقم (١٢١٢٢)، والمعجم الأوسط جـ٨ /صـ٣٢٧- رقم (٣٧٩٣) بلفظ: «سألت ربي مسألة، وددت أني لم أسأله، قلت: يا رب، قد كانت قبلي رسل، منهم من سخرت له الرياح، ومنهم من كان يحيي الموتى قال: ألم أجدك يتيما فآويتك (١) ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ووضعت عنك وزرك (٢) ؟ قلت: بلى يا رب ».

ثالثًا: سورة الشرح والضحى خاصتان بالرسول ﷺ.

فكلتاهما تتحدث عن مكانة النبي ﷺ ومقامه الرفيع عند ربه عز وجل، ونعم الله العديدة على عبده ورسوله ﷺ وذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه هو وأصحابه من أذى المشركين في سبيل الدعوة إلى هذا الدين العظيم، وبيان منزلته الرفيعة عند ربه عز وجل.

فسورة الشرح شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى أنه روي عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان: «هما سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم »[1].

ويشبه هذا سورتا الأنفال والتوبة، وسورتا الفيل وقريش.

****

(١) تفسر الألوسي جـ١٥/ صـ٣٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني

مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ. فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (١).

سورة الشرح فيها ظل العطف الندي، وفيها روح المناجاة الحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرج، وفيها التوجيه إلى سر اليسر، وحبل الاتصال الوثيق (٢).

ويمكن بيان مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح من خلال عدة نقاط:

١- شرح صدره ﷺ.

٢- وضع الوزر عنه ﷺ.

٣- رفع ذكره ﷺ.

٤- الوعد باليسر والرخاء بعد الشدة.

٥- توجيه المولى عز وجل للنبي ﷺ إلى الشكر والاجتهاد في العبادة.

وفيما يلي بيان تلك المظاهر:

أولاً: شرح صدره ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

هذه الآية وإن كانت مصدرة بالاستفهام، فهو استفهام تقريري لتقرير

---

(١) سورة الشرح الآيات ١ــ ٨

(٢) تفسير الظلال جـ٦/صـ٣٩٢٩، ط ٩، دار الشروق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإثبات، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف، من أن نفي النفي إثبات. وذلك لأن همزة الاستفهام دخلت على لم وهي للنفي، فترافعا فبقي الفعل مثبتًا (١).

الشرح لغة: الكشف، وشرح الشيء يشرحه شرحًا: فتحه، وبيَّنه، وكشفه، وشرح الله صدره: وسعه لقبول الحق (٢).

قال الراغب:«وأصل الشرح: بسط اللحم ونحوه يقال: شرحت اللحم، وشرحته، ومنه شرح الصدر، وهو بسطه بنور إلهي، وسكينته من جهة الله، وروحة منه »(٣).

وقد شاع استعمال كلمة شرح في السرور فيقال:«شرح قلبه بكذا أي: سره».

ومعنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك، والاستفهام إذا دخل على النفي قرره، فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك (٤).

الشرح اصطلاحًا وواقعاً:

اختلف المفسرون في معنى الشرح على ثلاثة آراء:

الأول: شرح معنوي كما قال الإمام الطبري في معنى الشرح: «الهدى والإيمان بالله، ومعرفة الحق »(٥).

الثاني: شرح حسي، وهو ما كان من شق صدره الشريف.

الثالث: الجمع بين الحسي والمعنوي ، فالله تعالى شرح صدره

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، للشنقيطي جـ٩ / صـ ٢١٨.
(٢) لسان العرب لابن منظور جـ٢/صـ٤٩٧.
(٣) المفردات للراغب صـ ٢٦١.
(٤) فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٣.
(٥) تفسير الطبري جـ١٢/صـ٦٢٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشريف شرحًا حسيًّا، ومعنويًّا، فالشرح الحسي حينما كان عند حليمة ـ رضي الله عنها ـ وحين أسري به وشرحه معنىً حين جمع له التوحيد والقرآن في صدره، وعلمه ما لم يكن يعلم، وشرحه حين خلق له القبول لكل ما ألقى إليه والعمل به وذلك هو تمام الشرح وزوال الترح [١]. أي الحزن.

وهو ما نميل إليه ونرجحه، ودليل ذلك حادثة شق صدره عليه السلام وإليك بيانها:

حادثة شق الصدر:

وقعت للنبي ﷺ وهو في بادية بني سعد؛ فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة فقال: «هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (مرضعته) فقالوا: «إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ».

قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره »[٢].

وقد ذكر الذهبي أن شق صدره كان مرتين في صغره، ووقت الإسراء به[٣].

والعجب أن نجد من ينكر حادثة شق صدره الشريف من بعض المستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين ويذهب إلى أنها أسطورة، أو شيء معنوي لا على سبيل الحقيقة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي جـ٤/صـ٤١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات جـ١/ صـ١٤٧ ، رقم (١٦٢).

(٣) السيرة النبوية للذهبي صـ٤٩.

مع أن قصة شق الصدر لا تخالف العقل أيضًا من جهة كونها تمت دون إراقة دم، والتأمت دون آلات طبية، فإن العلم الحديث يؤيد ذلك ويصدقه، فقد اخترعت آلات للجراحة تجعل الجرح يلتئم بدون سيلان دم من جسم المريض، كما وجد بعض الأودية تمنع سيلان الدم بمجرد بثها على الجرح، والطبيب لا يدعى أنه يفعل الأشياء الخارقة، وإنما يعتقد أن ذلك قد تم بعلم مدروس له قواعده وأصوله. كيف وقد تم زرع بعض الأجسام المنقولة من ميت أو صحيح إلى آخر مريض، ويزاول حياته الطبيعية بعد أن برأ وعافاه الله وزال عنه المرض؟ وإذا جاز ذلك في حق البشر وهو من جملة ما خلق الله عز وجل، أيستبعد ذلك على الخالق جل جلاله؟ (١).

وينبغي على المسلم أن يدرك ويتيقن أن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، وثبتت صحة الرواية من عدة طرق صحيحة، فلا يجدي صرف الكلام على غير حقيقته.

قال ابن حجر: «إن جميع ما ورد في شق صدره، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك »(٢).

الحكمة من شق صدره الشريف:

١- أن هذه الحادثة كانت بمثابة إعداد وإعلان للرسول ﷺ، وتهيئته للعصمة والوحي منذ صغره، وليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به.

يقول البوطي:«إنها عملية تطهير معنوي لكنها اتخذت هذا الشكل المادي

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة- رسالة دكتوراه - للباحث: عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني-١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م- دار اليقين- صـ ٢٩١.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١٥/ صـ٥٢، ح٣٨٨٧.

الحسي ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أبصار الناس وأسماعهم »[١].

٢- حصانة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ من وساوس الشيطان ومزالق الطبع الإنساني.

٣- والحكمة من شق صدره الشريف، مع قدرة الله تعالى على أن يملئ قلبه إيمانًا وحكمة بغير شق؛ هي الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه ﷺ أعطى برؤية شق بطنه، وعدم تأثره بذلك، ما أمن معه من جميع المخاوف العادية المهلكة، فكمل له ﷺ بذلك ما أُريد منه من قوة الإيمان بالله عز وجل وعدم الخوف مما سواه، فلذلك كان ﷺ أشجع الناس، وأعلاهم حالاً ومقالاً [٢].

ويتبادر إلى النفس سؤال: لما خُصَّ الصدر ؟

وإنما خُصَّ الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس عن العلوم، والإدراكات [٣]، ولأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [٤] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح؛ فلا جرم خص الشرح بالصدر دون القلب [٥].

وقيل: الصدر حضن القلب، فيقصده الشيطان، فإن وجد مسلكًا أغار فيه، وبث جنده فيه وبث فيه الغموم، والهموم والحرص، فيقسو القلب حينئذ، ولا يجد للطاعة لذة، ولا للإسلام حلاوة، فإذا طرد في الابتداء حصل الأمن،

---

(١) فقه السيرة النبوية، د /محمد سعيد رمضان البوطي صـ٥٢، ط ٧ /١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م، دمشق دار الفكر.

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة صـ١١١.

(٣) فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٣.

(٤) سورة الناس الآية: ٥.

(٥) تفسير الرازي جـ٣١ / صـ٧. والأولى أن يقال: وإبدال دواعى الخير بها، لأن الباء الجارة هنا داخلة على المتروك وما قبلها مأخوذ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانشرح الصدر (١).

ولم يقل: نشرح صدرك تنبيها على أن منافع الرسالة عائدة عليه؛ كأنه يقول إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي (٢).

والمراد: الامتنان عليه بفتح صدره وتوسيعه، حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي (٣).

ثانيًا: وضع الوزر عنه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (٤) كناية عن عصمته من الذنوب، وتطهيره من الأدناس.

و عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك (٥).

ولا يعتبر بقول بعض المفسرين (٦) الذين فسروا الآية بما يخالف عصمته ﷺ.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٧).

أنقض في اللغة: من أنقض الجمل ظهره: أثقله وجعله يُنقِضّ من ثقله

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل جـ١٦ / صـ٣٨٦.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف / العلامة أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، م ٧ / صـ٤٩١، ط ١ /١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣) فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٣.

(٤) سورة الشرح الآية: ٢.

(٥) تفسير أبي حيان جـ١٠/ صـ٥٠٠.

(٦) مثل تفسير الطبري جـ١٢/صـ٦٢٧، والذي لم يعلق على ما نقل من أخبار وآراء. والقرطبي في تفسيره جـ٢٠ /صـ٧٢، فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٤، وروح المعاني للألوسي جـ١٥/صـ٣٨٨، ٣٨٩.

(٧) سورة الشرح الآية: ٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي يَصوتُ (١).

ومراد المفسرين من ذلك: أن الله تعالى غفر لنبيه ﷺ أوزاره التي كانت تراكمت على ظهره حتى أثقلته، وأنها لو كانت أثقالا حملت على ظهره لسمع لها نقيض أي صوت.

وهذا القول فيه غلظه في اللفظ لا يليق بمكانته، وعصمته ﷺ.

والأولى: إطلاق اللفظ على معناه اللغوي، وعدم تحميله ما يخل بمكانة النبي ﷺ وعصمته.

وتفسير الوزر هنا بالحمل الثقيل وما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة (٢)، وهو الأصل في اللغة، أولى من تفسيره بما يخبر عنه بالمغفرة، ولا ذكر لها في السورة.

وحياة النبي ﷺ مليئة بالأشياء المثقلة في تحمل أعباء الدعوة.

يقول الشيخ الغزالي:«والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله ﷺ يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة المعدن الذي صيغ منه بدنه صياغة أعجزت العمالقة، وأمكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة ومشاق الجهاد ولأواء العيش وهو منتصب مقدام »(٣).

ثالثًا: رفع ذكره ﷺ.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٤).

أي: لا أذكر إلا ذكرت معي، وذلك قول: لا إلـه إلا الله محمـد رسـول

---

(١) لسان العرب جـ٧ /صـ٢٤٣.

(٢) المعجم الوسيط جـ٢ / صـ١٠٢٨، ط /دار الدعوة مجمع العربية.

(٣) فقه السنة، للشيخ / محمد الغزالي صـ٤٤، ط٤ / ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، دار القلم، بيروت.

(٤) سورة الشرح الآية: ٤.

الله[١].

وقول مجاهد: «يعني بالتأذين».

وعن ابن عباس قال:«يقول له: لا ذَكرت إلا ذكرت معي في الآذان، والإقامة، والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح وفي مشارق الأرض ومغاربها.

ولو أن رجلاً عَبَد الله ــ جل ثناؤه ــ وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمدا رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافرا »[٢].

وعلى كل فيمكن الجمع بين هذا كله بأن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه ﷺ يتناول جميع هذه الآراء.

فلقد ملأ الله تعالى ذكره السماوات والأرض، ورفع الله تعالى ذكره في الدنيا والآخرة.

وما أحسن قول حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ:

أغــر عليــه للنبــوة خاتــم.. من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي مع اسمه.. إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجــله .. فذو العرش محمود وهذا محمد [٣]

رابعًا: الوعد باليسر والرخاء بعد الشدة.

وعد الله تعالى نبيه ﷺ اليسر والرخاء بعد الشدة، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ

---

(١) تفسير الطبري جـ١٢/صـ٦٢٧.

(٢) تفسير القرطبي جـ٢٠ /صـ٧٣.

(٣) ديوان حسان بن ثابت صـ٣٣٨، والبيت الثالث في خزانة الأدب جـ١ / صـ٢٢٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١).

وهذا تقرير لما قبله ووعد كريم بتيسير كل عسير له ﷺ وللمؤمنين.

والمعنى: إن مع الضيقة والشدة يسرًا؛ أي: سعة وغنى (٢).

وفي كلمته (مع) إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر كأنه مقارن للعسر (٣): ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

الأكثر من المفسرين على أنها تكرار؛ ولكن لا تكرار في القرآن الكريم؛ فكل لفظ في القرآن الكريم يأتي بمعنى جديد فقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي مع ذلك العسر المذكور سابقًا يسر آخر لما تقرر أنه إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول سواء كان المراد به الجنس، أو العهد، بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب (٤).

فعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ بإسناد جيد من طريق قتادة قال: «ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال:«لن يغلب عسر يسرين إن شاء الله »(٥).

قال المفسرون: «ومعنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين ». أن الله تعالى كرر العسر بلفظ المعرفة، واليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا

---

(١) سورة الشرح الآيتان: ٥، ٦.

(٢) تفسير فتح القدير جـ٥/صـ٧٣.

(٣) تفسير أبي السعود جـ٩/صـ١٧٣.

(٤) تفسير فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٥.

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ٨، كتاب التفسير، باب ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ صـ٥٨٣، أخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود، وقد روي هذا مرفوعاً وموصولاً ومرسلاً وروي أيضا موقوفا.

نكرت اسما معرفا ثم أعادته، كان الثاني هو الأول، وإذا نكرت نكرة ثم أعادته مثله صارا اثنين، وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف؛ فكان عسرا واحدا، واليسر مكرر بلفظ النكرة؛ فكانا يسرين كأنه قال:إن مع العسر يُسْرَيْن.

قال الواحدي:«وهذا قول النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم والمفسرين على أن العسر واحد واليسر اثنان »[١].

خامسًا: توجيه المولى عز وجل للنبي ﷺ إلى الشكر والاجتهاد في العبادة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [٢].

وجه تعلق هذا بما قبله:

أنه تعالى لما عدد عليه ﷺ نعمه السالفة، ووعده بالنعم الآتية لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة [٣].

والنصب معناه في اللغة: التعب [٤].

قال الفراء:«اتفق الموحدون، والمفسرون على أن معناه: إذا فرغت من الصلاة فانصب للأخرى بلا فتور، ولا كسل ».

وقد اختلفوا في تعينها على أربعة أقوال:

الأول: إذا فرغت من الفرائض فتأهب لقيام الليل.

الثاني: إذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء.

---

(١) تفسير فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٥.

(٢) سورة الشرح الآية: ٧.

(٣) تفسير الرازي جـ٣١ /صـ٧.

(٤) لسان العرب جـ١/صـ ٧٥٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثالث: إذا فرغت من الجهاد فاعبد ربك.

الرابع: إذا فرغت من أمر دنياك فانصب لأمر آخرتك [١].

وعلى كل فإن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يجعل فراغه من كل ما كان مشتغلا به من أمر دنياه وآخرته إلى النصب في عبادته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال لعموم الشرط في ذلك.

ففي هذه الآية توجيه للنبي ﷺ أن يواصل بين بعض العبادات وبعض، وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى [٢].

﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [٣].

قال الزجاج:«أي اجعل رغبتك إلى الله وحده »[٤].

والمعنى: أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان؛فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه [٥].

قال الإمام الرازي:« فيه وجهان:

أحدهما:اجعل رغبتك إليه خصوصًا، ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه.

وثانيهما: ارغب في سائر ما تلتمسه دنيا ودينا، ونصرة على الأعداء إلى ربك »[٦]. وكل هذه المعاني مراده.

والمعنى: أن تجعل رغبتك إليه وتتوكل عليه في دينك ودنياك.

يقول صاحب الظلال:«وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي جـ٤ /صـ٤١٢ ـ ٤١٣

(٢) تفسير الرازي جـ٣١ /صـ٧.

(٣) سورة الشرح الآية: ٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج.

(٥) تفسير فتح القدير جـ٥/صـ٥٨٦.

(٦) تفسير الرازي جـ٣١ /صـ٧.

وقد تركت في النفس شعورين:

الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم.

والشعور بالعطف على شخصه، ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل»[1].

وبعد هذا العرض لعناية الله برسوله ﷺ من خلال سورتي الضحى والشرح يتبين لنا في وضوح لا خفاء معه، وفي يقين لاشك فيه أن:

نبينا محمداً ﷺ هو سيد الأولين والآخرين، وأكمل الخلق أجمعين، المنزل عليه الكتاب المبين، أعظم نعمة، وأجل منة أنعم الله بها على عباده.

بلغها لهم بأصدق لسان، وأطهر قلب، وأبلغ بيان، ولا يكون ذلك إلا لنبي اختاره الله بعناية، واصطفاه عن حكمة بالغة، وتقدير كامل ليحوز هذا الشرف الأرفع، والمكانة الأعظم، ولا يتم ذلك في العالمين إلا لسيدهم محمد ﷺ ومن هنا كانت عناية الله تعالى لنبيه ﷺ على قدر شرفه ومقداره.

فأنزل عليه القرآن، ومدحه فيه بلسان صدق يردده الخلق جميعًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

محمد بشر لا كالبشر.. ولكنه ياقوتة بين الحجر

••••••

الخاتمة

نتائج البحث:

مما سبق نستخلص النتائج الآتية:

أولاً: سورة الشرح شديدة الاتصال بسورة الضحى، لتناسبهما في الجمل؛ ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما.

ثانياً: يقسم الله بما يشاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير خالقه، فإن القسم بغير الله شرك.

ثالثاً: الله عز وجل قد أحاط النبي ﷺ بعلمه، ورحمته، وعنايته وغير ذلك مما يقتضي رفعته في الدنيا والآخرة.

رابعاً: ما ادخره الله تعالى للرسول ﷺ في الآخرة خير مما أعطاه في الدنيا من النبوة والرسالة.

خامساً: على المسلم أن يسعف كل سائل بما يسأله إن قدر عليه، أو يتلطف في الجواب إن عجز عنه ولا ينهره.

سادساً: التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

سابعاً: على المؤمنين الرغبة فيما عند الله والقيام بالفرائض والنصب في الدعاء والالتجاء إلى الله في كل أمر، وإذا فرغ المؤمن من عبادة فلينصب في عبادة أخرى.

ثامناً: كل تشريفٍ يقابله تكليف في هذه الحياة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهم المراجع

القرآن الكريم:

١. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي عبد الله بن أحمد الأزرقي، ت ٢٥٠هـ، تحقيق/ رشدي الصالح ملحس (ط/ دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢. أحكام القرآن، لأبي بكر بن عبد الله المعروف بابن العربي (٤٦٨هـ ـ ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه، وعلق عليه/ محمد عبد القادر عطا، (ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٣. البداية والنهاية، لابن كثير،تحقيق / محمد عبد العزيز النجار،مطبعة الفجالة الجديدة،القاهرة.

٤. البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ) مراجعة / صدقي محمد جميل (ط / دار الفكر ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م)، بيروت، لبنان.

٥. التحرير والتنوير، للعلامة الشيخ / الطاهر بن عاشور، (ط / دار سحنون، تونس).

٦. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د / مهدي رزق الله أحمد (ط٤ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٧. السيرة النبوية، لابن هشام،حققها وضبطها وشرحها / مصطفى السقا، ابراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط/ دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٢ هـ /١٩٩٢م).

٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف / أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧هـ ـ ٥٣٨هـ)، ط / دار المعرفة،بيروت، لبنان.

٩. المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، حقق أصوله وخرج أحاديثه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورقمه حسب المعجم المفهرس الشيخ / خليل مأمون شيحا، (ط٣ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
١٠. المعجم الوسيط (ط / دار الدعوة مجمع اللغة العربية).
١١. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، مجلد قسم السيرة، للإمام الذهبي، تحقيق د / عمر عبد السلام تدمري (ط / ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٢. الجامع الصحيح، للإمام البخاري، (ط / المكتب الإسلامي، إستانبول، تركيا (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
١٣. تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لقاضي القضاة الإمام / أبي السعود محمد بن محمد العمادي، المتوفى سنة ٩٥١هـ، (ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).
١٤. جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري (ط / الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف العلامة / أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفي سنة ١٢٧٠هـ، ضبطه وصححه / على عبد الباري عطية، (ط ١ / ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٦. صحيح البخارى، للإمام / أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفي سنة (٢٥٦هـ)، مراجعة وضبط وفهرسه الشيخ / محمد على قطب، والشيخ / هشام البخاري، (ط٢ / ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، المكتبة العصرية، بيروت.
١٧. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، قام بتحقيقه وتصحيحه / محب الدين الخطيب، كتب أبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه / قصي محب الدين الخطيب، ط ١ / ١٤٠٧هـ - ١٩٦٨م)، القاهرة ،دار الريان للتراث.
١٨. فتح القدير، للشوكاني، (ت ١٢٥٠هـ) ط / مصطفى البابى الحلبى.

١٩. فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف العلامة/ أبى الطيب صديق حسن بن على الحسيني القنوجى البخاري، وضع حاشيته / إبراهيم شمس الدين، (ط١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢٠. فقه السيرة النبوية، د / محمد سعيد رمضان البوطى (ط٧ / ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م) دار الفكر، دمشق.
٢١. فقه السنة، للشيخ/محمد الغزالي (ط٤/١٤١٤هـ-١٩٩٤م) دار القلم، بيروت.
٢٢. في ظلال القرآن، للشيخ / سيد قطب (ط٩ / دار الشروق).
٢٣. المفردات، للراغب، تأليف / أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، راجعه وقدم له/وائل أحمد عبد الرحمن،ط/المكتبة التوفيقية القاهرة.
٢٤. تفسير الإمام الرازي، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥. لسان العرب، لابن منظور (ط٣/ دار صادر بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
٢٦. معجم البلدان، تأليف / ياقوت عبد الله الرومي البغدادي، المتوفى سنة ٢٦٢هـ (ط / ١٣٧٦هـ -١٩٥٦م)، دار صادر بيروت.
٢٧. معاني القرآن، للزجاج أبى إسحق.
٢٨. معاني القرآن، تأليف / أبي زكريا يحي بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ (ط/ دار السرور).

••••••••••

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	٥١٥
الفصل الأول : مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ ونعمه عليه في سورة الضحى	٥١٩
المبحث الأول : السمات العامة لسورة الضحى.	٥٢٠
المبحث الثاني : مظاهر عناية الله تعالى وتكريمه للنبي ﷺ في مطلع السورة .	٥٢٢
المبحث الثالث : النعم التي منَّ الله تعالى بها على النبي ﷺ في سورة الضحى	٥٣١
المبحث الرابع : عناية الله تعالى برسوله ﷺ في ضوء الوصايا التي أوصاه بها في السورة الكريمة .	٥٣٧
الفصل الثاني : مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح .	٥٤١
المبحث الأول : العلاقة بين سورتي الضحى والشرح .	٥٤٢
المبحث الثاني : مظاهر عناية الله تعالى برسوله ﷺ في سورة الشرح .	٥٤٤
الخاتمة :	٥٥٦
أهم المراجع	٥٥٧
فهرس الموضوعات	٥٦٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner